النهر

قصص قصيرة

السيد بدوي

الطبعة الأولى
الكتاب : النهر
المؤلف : السيد بدوي
تصنيف الكتاب : قصص قصيرة
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس : ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : ? - ??? - 776 - 977 - 978

التجهيزات الفنية والطباعة
دار يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع
طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت -محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩
تصميم و إخراج : أحمد عبد الحليم
رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

أهدي هذه المجموعة القصصية

إلى زوجتي و أصدقائي خاصة

الكاتبة المغربية حنان نصري

والأستاذ محمود فوزي

السيد بدوي

عشق

بدت غاية في السذاجة والإثارة معا عندما حاولت إقناعه بأن الفلوس ليست هي كل شيء..

أطرق لحظة تأملها طويلا حتي أشعرها بالحرج ..

قالت في وجل : أعلم أنك لن تقتنع وستصمني بالهذيان ... لكن ..ولم تجد ماتقوله فسكتت لحظة تستدر أفكارها

قالت : لكني لن أكلفك بشيء ..وابتسمت بل لن أطالبك بشيء أبدا

أشاح بوجهه عنها بينما راحت تتأمله بملامحه الصلبة وعينيه المتقدتين ، ولأول مرة لم تلمح فيهما تلك الرقة والشفافية اللتين كانتا تفيضان بهما نظراته، فبدت أمامه كطفلة تسدي النصح لشيطان مريد

قالت مستعطفة : عهدتك تجمع بين العقل والعاطفة

استمر فى تجاهله لها

قالت منفعلة : السير خلف الغرائز شيم التافهين

كعاصفة اتجه بوجهه نحوها .. طوقها بنظرة شعرت بأنها تعرفه لأول مرة

قال وهو يضغط علي الحروف : لأجلك فكرت في السفر.

انقبضت لسماعها صوته .. كان كله تحديا وإصرارا ..

قالت بصوت خفيض : وهأنذا أدعوك بألا تسافر وأتوسل إليك بأحلامنا ..

وبصوت متهدج قالت : بسفرك ستهدم كل مابنيناه وانسابت على وجنتيها دمعتان أزالتهما بسرعة

قال وهو ينظر عبر الفضاء اللامتناهي ..أحلامي أكبر من أن تتحداها عاطفة أوتوقفها نزوة وهمس كالمتحدث لنفسه : من أين لي بالفيلا والسيارة ..و ..و ....؟

وفك أصابعه عن حفنة من الرمال كانت بقبضته فتناثرت حولهما وقال : هيا فما زالت حقيبتي لم ترتب بعد ..

تبعته بخطى ثقيلة وبلا إرادة وقد تحجرت الدموع بمقلتيها

كان وداعهما لا ينم عن حبهما ..شعرا بأنهما لن يلتقيا بعده أبدا

كانت خطاباتها قليلة .. لم تتعد الثلاثة ..

انقطعت فجأة .. حدث ماتوقعه.. لم يحزن كثيرا .. تذكرها كماض سحيق .. لم يتردد فى تمزيق خطاباتها .. تنهد عندما مرت بذاكرته وكأنها تجلس أمامه ..اعتراه إحساس شديد بالندم وبعفوية راح يلملم قصاصات خطاباتها بين يديه ..

دس وجهه فيها وبكى بكاء مريرا ..مريرا

الخال

عندما كان يطرق الباب...

تفتح له أمي وقد تهلل وجهها ..

مرحبا ..يا خال..

ثم تتناول باعتزاز كيسا يحمله بين يديه منادية علي..

خذ من خالك..

وتعاتبه في رقة متناهية...لم كل هذا التعب ياخال ؟

ويرد الخال في خشوع يثير شجن أمي... رحم الله الغالية

وما إن يستوي الخال في جلسته ....

حتى نتحلق حوله مستأنثين بحديثه العذب

والذي كنا نعشق سماعه ....رغم أننا سمعناه مرات.

وعندما كنا نودعه على أعتاب دارنا ...

تربت أمي في حنو على كتفه ...لاتتأخر علينا يا خال

ويرد في ود ...

تعلمين لايمنعني عنكم إلا الشدائد....ويغادر الخال ...

وتبقى أطيافه تعمر الدار ...

إلي أن يعاود زيارته التي كان حريصا عليها رغم كبر سنه

والتي كنا ننتظرها انتظار الأعياد .....

وحل موعد الزيارة ..

لكن الباب لم يُطرق .....

ولم يدخل علينا الخال

وأشفقنا من سؤال أمي التي كانت تتحاشى النظر إلينا بوجهها الشاحب وعينيها الممتلئتين بالدموع

ورغم طول غياب الخال ....

إلا أننا وفي موعد زيارته كنا نتسمع إلى الباب....

منتظرين أن تفتح له أمي....فيهل علينا بابتسامته ...وأكياسه

وحديثه العذب الذي ملأ علينا الدار حبا...

ورغم إدراكنا أن الخال قد مات .....

إلا أننا لم نكن قادرين أن ندرك ...

أن الحب الذي ملأ به دارنا ...يمكن أن يموت

زهيمر

في كل صباح أمر عليها ، لا أتخيل أن أبدا يومي دون رؤيتها ؟..أصبحت من طقوس حياتي ..

ـ السلام عليكم يا جدة

أتناول يدها برفق أنحني أقبلها ، أشتم فيها عبق تاريخ مليء بالتضحيات.. تلتف يدها الأخرى تطوق عنقي ، تقبل راسي أتلو عليها أهم أخباري

تودعني دعواتها حتي نهاية السلم ..أسمعها

أستقبل يومي منشرح الصدر ..

تتفتح لي أبواب مغلقة لم تكن لتفتح إلا بفضل هذه الدعوات ، أعتقد ذلك وأؤمن به ..

عجيبة ..

تلك هي الحياة تتفلت من بين أيدينا كتفلت الماء من بين أصابع القابض عليه ، تمنحنا أشياء حتى إذا مافرحنا سلبتنا أخرى ، مثلما سلبت جدتي ذاكرتها حيث أصبحت حتى لاتذكر اسمها ..

لكن عاداتنا لم نغيرها .

فما زلت ألثم يدها ومازالت يدها تطوق عنقي وقبلتها وأخباري التي تطرق مسامعها ودعواتها التي تودعني حتي آخر السلم .

أصبحت جدتي تتصرف مثل (ربوت)

محنة ..

أمر هذه الأيام بمحنة من ذلك النوع الذي لاتستطيع أن تحكيه لأحد

لكن وجه جدتي والذي بدا كسطح بحيرة راكدة أغراني أن أحكي

كانت عيناها ترمقني من خلال وجه ثلجي ، وفجأة ذاب الثلج وانقلبت البحيرة الراكدة إلى بحر هائج بعاطفة لم أعهدها على جدتي وهي بكامل ذاكرتها .

اقتربت وضمتني حتى بلل دمعها كتفي وهتفت

ـ شدة وستزول يابني

شدة وستزول يا أحمد ..

نعم هتفت باسمي ..

صرخت ..جدة أنت قلت يا أحمد ..قلت يا أحمد

وبعد لحظات عادت جدتي لحياتها سكنت البحيرة وكسا الثلج ذلك الوجه ..

وكعادتنا كنا نلتقي كل صباح ..

لكني كنت أرى تحت المياه الراكدة وفي عيني الوجه الثلجي ، وهج عاطفة لن تستطيع أي مياه أو ثلوج أن تطفئها ..

الرجل

لم أكن أعرف أحدا أحب إلى قلبه من ذلك الرجل

لذا أضنيت نفسي كي أعرف السبب ... لكنه لم يكن ليطلعني عليه

وعندما ألح عليه في السؤال عن سر ذلك الحب العظيم يبتسم حتى وكأن الشمس تشرق في وجهه ولا يقول شيئا.

يبقى أمر فاتني أن أذكره ..

أنه لم تكن تصيبه ضائقة إلا وكنت أجد ذلك الرجل معه .

حجرة المداولة

عندما مات الجد كان هم كل من يعرفه هو سر تلك الحجرة التي في أعلى المنزل والتي كانوا يتندرون همسا فيما بينهم ويسمونها حجرة المداولة ، فلم يكن الجد ليسمح لأحد أن يدخلها أو يقترب منها حتى أحب أحفاده إليه مما جعل الجميع يجهد عقله في سر تلك الغرفة ، منهم من اعتقد بأنه يحتفظ فيها بماله ومنهم من قال إنه يجري منها اتصالاته ، وعزز ذلك لديهم أنه لم يكن يدخلها إلا وهو مهموم

لكنهم بكوا كثيرا عندما فتحوها ووجدوا مصحفا وسجادة .

واشتد بكاؤهم حين أدركوا أنهم فقدوا الجد

رسالة

تاملته كثيرا وهو يفض غلاف رسالة زوجته التي وصلت إليه ..

..وقد بدا اضطراب مشاعره على يديه وأصابعه التي أخذت ترتعش ، وهى تتعجل الوصول إلى الرسالة ..

وما إن فردها ..حتى غاب بين سطورها...

ناديته مرات عديدة ....

كان يرمقني بطرف حالم وكأنه يسمعني من خلف زجاج

وضعت يدي على كتفه وأخذت أهزه قائلا ..

لابد أن أعرف محتوى هذه الرسالة

التفت إلي وهو يطويها بحرص شديد وقال: لاشيء

لم أكن أنتظر أن يخبرني ..وكان من المستحيل أن يفعل ذلك

ولشدة معرفتي به ..كذلك معرفتي بزوجته كنت أتخيل محتوى الرسالة

إنها كلمات حب .. مهترئة النسج ... ربما تافهة المعنى

...ولكن ماكنت واثقا منه ..أنها غاية في الصدق .

نذالة

استيقظ مفزوعا على صوت لم يسمعه من قبل...

صرخ..... ما الذى يحدث ؟

لم يستطع أن يتحرك وسط الزحام ..التحمت الأجساد

صارت كتلة واحدة ..وغاصت قدماه فيما يشبه الطين ..

صرخ بأعلى صوته...يا ناس ...ياعالم ... حرام

لم ينتبه له أحد ..

صرخ مرة أخرى...ما الذى يحدث ؟..وكأنه يوم الحشر ؟...

وتجمد الدم في عروقه ، وتملكته رعدة عندما دوى صوت حاد النبرات : نعم إنه يوم الحشر

تصبب عرقا ...وازدادت قدماه غوصا في الطين...تمني لو فقد وعيه

لكن نفس الصوت وبتلك الحدة : لن تفقد وعيك بعدما استعدته

ولن تموت ...لا موت بعد اليوم..

انهارت قواه .. لكنه ألقي في روعه أنه لن يسقط..

أجال بصره في الوجوه لعل فيهم من يعرفه أو يهدئ من روعه

غشاه الفزع لما رآه من رعب على وجوههم ...أيقن أن وجهه يشبههم

لم يدر كم مر من الزمن لكن حياته مرت أمامه بكل دقائقها..

أفاق على نفس الصوت وكأنه ينادى عليه ..

وامتدت يد وانتزعته من وسط تلك الجموع...

ووجد نفسه وحيدا في ساحة لم يدرك بصره مداها...

رفع رأسه ليستطلع أى يد تلك التي أخرجته وارتاع لما رآه

إنها أجسام هائلة ووجوه.. يابسة

وفجأة بدا له صديقه الصدوق..صرخ : ياااااا....لكنه كان قادما إليه

..ليس بتلك الابتسامة ..ولا باشاً كعادته... وإنما بغضب لم يعهده عليه وعندما صارا متواجهين بصق في وجهه ومضى...

صرخ : يااااا...

لكنه كان يبتعد ويتضائل حتى اختفى ...

وبدا له صديق آخر ..لكنه يستنجد به فوجد نفسه يدير له ظهره

رغم صراخ الآخر: أنقذني يا أحمد...يا أحمد ... يا احمد

اصح يا أحمد ... لعله خير ...

فتح عينيه بصعوبة ..وشهق ..يااااه

قالت الزوجة وهى تناوله كوبا من الماء : اشرب... خير

أجاب باقتضاب : لاشيء

لم يتناول شيئا من الماء وقام فغسل وجهه جيدا وهو مازال يشعر بلزوجة البصاق وسخونته على وجهه

عاد إلى فراشه متجاهلا أسئلة زوجته وجاهد أن ينام

لم يغمض له جفن تلك الليلة ..كان يتحسس وجهه بين الحين والآخر مستهولا السبب الذي يجعل صديقه يبصق عليه ، ولكنه كان يعتصر ألما حين يتذكر كيف أدار ظهره لصديق يستنجد

وأي خطر يجعله يفعل ذلك ؟ ...

....وعبثا حاول أن يجد إجابة

أسير

لم تكن أم محمد جارتنا تعتقد أن ابنها محمد والذي غاب عنها في العراق سيعود لتعود معه حياتها والتي غابت معه.

وحين كنت أواسيها وأذكرها بأنه يوم ما سيعود ، تبتسم في مرارة وتقول بحرقة ينفطر لها قلبي

: لو أن الأمريكان هم من أسروه يابنى لصدقتك ..

ويغلب على صوتها البكاء وهي تكمل بلهجة الواثق من عدم عودته .. أنت لاتعرف من أسر محمد ؟؟

ثم تصمت لأحترق شوقا كي أعرف من أسره

فتقول همسا محدثة نفسها وهي تنتحب

: لقد أسرته امرأة

براءة

لازال صديقي يذكرني بتلك الأيام فعندما كنت أزوره بصحبة صغيري أحمد يبالغ في الترحيب بنا ويأخذ صغيري بين يديه ويغدق عليه من الهدايا ثم يسأله ..

أتحب عمو ؟؟:

ويرد صغيري بصوت واضح

لا أحبك .. :

ويضحك صديقي حتي يسقطه الضحك بينما يعتريني الخجل وأنا أقول :عيب يا أحمد عمو حبيبك ..

فينهرني صديقي وهو يقول : لا تعلمه الكذب دعه إنه يقول ما يشعر به .. مرت سنوات ليست بالكثيرة على تلك الأيام

وحين زرته بصحبة أحمد .. مارس طقوسه القديمة وأعاد ذلك السوأل ورد أحمد نعم أحبك ..

فابتسمت بفخر وهززت رأسي وأنا أنظر إليه وقد علت شفتيه ابتسامة لم تخل من الدهشة ، وردد همسا بصوت يخالطه شيء من الحسرة ... كبر الولد .. كبر أحمد

النهر

كنت أقابله دائما في الصباح الباكر وهو متجه إلى النهر ، وما إن يراني حتى يبادرني بابتسامة تشي بمدى صفاء سريرته ونقاء قلبه ثم يمد يده إلي ويصافحني بحرارة في كل مرة ، وكأننا نلتقي بعد غياب طويل، ثم يمضي وهو يوزع ابتساماته وتحياته على من يقابله إلى أن يستقل قاربه من مرساه على ضفة النهر ثم يغيب بين الضفتين كما يغيب حلم جميل عندما نستيقظ ..

وتبقى ابتسامته ودفء يده في وجداني يؤنساني طول اليوم.

كم مرة أردت أن أستوقفه وأسأله عن سر تلك الابتسامة ، لكن حالت دون ذلك أشياء كثيرة ، وكم مرة استفزتني تلك الابتسامة وأردت أن أوبخه وأسأله علام تبتسم ؟ وهل هناك مايستحق الابتسام ؟ ..

لكن حيائي كان يمنعني واليوم واتتني الفرصة والتي انتظرتها طويلا ، فلقد فاجأني وجوده بجواري في السيارة المتجهة إلى المدينة ، وبنفس الطريقة حياني مما حثني على استنفار طاقاتي كي أعرف السر ، واستدرجته فسألته في البداية عن أولاده وأحوالهم ، قال لدي ولدان محمد وأحمد ، ولدي بنت هي زينب ، وعجبت وقلت أنا لا أعرف لك غير

ولد واحد هو أحمد ، قال وقد كست وجهه مسحة من الحزن : محمد هو الكبير أقعده المرض منذ اثني عشر عاما ، لذلك لاتعرفه ..

وأخرستني كلماته وتملكني الوجوم ونال الوجع من قلبي .

قال عندما استشعر ذلك : هون عليك ، ثم وضع يده على كتفي في حنو

وقال يبدو أنني ضايقتك .. حاولت الكلام لأعتذر له إلا أن الكلام انحشر في حلقي فلم أستطع أن أتكلم ومر الوقت ببطء قاتل ، قطعه صوت صفير كابح السيارة وسباب السائق لراكب دراجة نارية قطع عليه الطريق فجأة ، فالتفت إلي مستغلا ذلك بعدما آذاه ما استشعرته من حرج ، وقال الحمد لله أن نجانا ثم موجها كلامه للسائق لم يكن هناك داع للسباب

قال السائق مبررا سبابه : لقد رأيت ماحدث ثم نظر إلي فهززت رأسي بآلية ..

مرت أيام كثيرة لم أقابله إلا أن ابتسامته لم تزل تشغلني ولم يزل ذلك السؤال عن سر تلك الابتسامة يلح علي ولم أزل أتحين الفرصة لأدرك ذلك السر ..

اليوم وفي الصباح الباكر شاهدته كعادته يسير في دعة ، يوزع الابتسامات ويلقي بالتحيات على كل من يلاقيه .. كما يسير النهر في سكينة ويسر يغمر الضفاف بالخير والنماء وهو في طريقه إلى المصب

لكن لا أحد يدرك فداحة مايكابده هناك في المنبع

امرآة

كانا مثالا للصداقة والوفاء حتى صارا يُقتدى بهما لكنهما افترقا ..

يقول الراوي : إنه لايستطيع أن يجزم ..

لكن يمكنه القول إن في متن الحكاية امرأة

امرأة و رجل

صارت حياتهما مشهدا متكررا من مسرحية مملة

هي : في لهجة عتاب أصبحت تعمل مثل الآلة

هو : وقد أغضبته كلماتها وماذا تريدين مني ؟ .. أنزلق مثلما يفعل التافهون ؟

هي: بنفس اللهجة يجب أن تعلم أني امرأة

هو : لايتكلم بينما تظهر تعبيرات وجهه السخرية من قولها

تمر فترة صمت تاركة مساحة لجملة أراد كلاهما أن يقولها للأخر قبل أن تنسحب هي للمطبخ وينشغل هو باللاب ..

في حسرة لم تكن كذلك حين عرفتك

هروب

في آخر مرة تشاجرا، حزم حقائبه وغادر.

كانت تتوسل إليه في المرات السابقة ألا يتركها..

فيلبي طلبها، لكنها لم تفعل هذه المرة ..

وظلت تنتظره كل مساء، في مثل هذا الوقت كان يعود

وذات يوم لم يعد المساء أيضا.

صديقان

تمت المهمة بنجاح ..لكنه لم ينسحب رغم صدور الأمر لهم بالانسحاب ، فلم تكن قد انتهت بالنسبة له .. فلقد استشهد رفيق عمره ..

صرخ القائد : انسحب

لكنه تمترس في مكانه .. عندها أدرك القائد مايدور في نفسه وعلم أنه يريد أن يصطحب جثة صديقه كي لاتعبث بها يد الأعداء

قال القائد مستعطفا : ماتفكر به مستحيل وسيعرضنا جميعا للهلاك

لكنه لم يصغ إليه ..

وفى صباح اليوم التالي كان تلفزيون العدو يعرض صورا لجثتين

صورة

ابتسم وأنا أحكي الحكاية ولم تبد عليه علامات غرابة ، فحكايات الحب فيها اللامنطق يحكم لكنه كان تواقا لأن يرى من قدرت علي وأسرتني

قال : ألديك صورتها

وبعفوية قلت : نعم

وعبثا حاولت إخراج صورتها

فقد كنت أحفظها في قلبي ووجداني

امرأة

أرهفت زوجته السمع فقد كان حديثي مع صديقي همسا حين راح يسألني عن المرأة التي تزوجتها وهو يقصد امرأة بعينها فأخبرته بأنني تزوجت من أخرى

مر الوقت سريعا كعادة الأوقات الجميلة إلا أنني مازلت مرتابا من زوجته التي اعتقدت أنها أساءت فهمي فقطعت الطريق عليها وأخبرت زوجتي ..وعشت طريد تلك الحماقة طوال حياتي

غيرة

لازال عمى محمد يذكرني ببكائي وأنا طفل ، عندما أخبرني أنه يحب تلك النجمة التي أسررت له يوما أني أحبها ، وأنها تبتسم له مثلما تبتسم لي ..

ولازال يسألني عن سر بكائي ..

فلا أجيبه فقد كنت أعتقد أنها لاتشرق ولاتبتسم لأحد غيري

القطار

لم تكن قد رأت القطار قبل ذلك اليوم ..لكنها حين رأته أصابها الفزع

منذ ذلك اليوم وهي تكرهه ذلك الذى فرق بينها وبين من تحب

أم

تستثيرني بطن أمي حين أدرك أنها كانت تحتويني

تحملني بداخلها ..هناك في جوار القلب

أجمل كذبة

عندما تناولت الهاتف لأطلب صديقا لي طلبت بالخطأ رجلا كنت قدمت له معروفا

فبادرني قائلا : لم أكن أدرك ياسيدى أن الدنيا لايزال بها هؤلاء الطيبون أمثالك ، كان يكفي ما قدمته لي ، أما أن تتصل لتطمئن علي فهذا فضل منك كبير ..

ووجدتني أقول هذا واجبي ياسيدي كان علي أن أتصل لأطمئن عليك ..

أنهيت المكالمة وقد ماجت نفسي بمشاعر كثيرة لكنها جميلة..

فلأول مرة أشعر بالسعادة وأنا أكذب ..

نعم ..

فلقد كانت أجمل كذبة في حياتي .

محنة

كانت المحنة تعصف بي عندما هاتفته ساعتها ... تتنكر ... اليوم يعرض خدماته ، فاته أن المحنة قد انتهت ، مثلما انتهى هو الآخر من حياتي

انكسار

لا أحد يخلو من المزايا إلا أنا ..

هكذا أبدو في نظر زوجتي ... كلي عيوب

كلامي .. أفعالي حتى الصمت الذي نتقي به الأخطاء يبدو أكثر عيوبي

فحين تتلبد سماءها فتبرق وترعد ..

أنت معجون بالأخطاء

لا أرد .. أبتسم فيكون ذلك أكبر أخطائي ..

تكلم .. لماذا لاتتكلم ؟

أوثر السلامة أتراجع .. أستدير وأنسحب

لا أضمن ردة فعلي حين أغضب ..أحافظ على البقية الباقية..

أدرك طبيعتها وأقدر تاريخا لي معها

فلم يكن زواجنا تقليديا ..هي حلم حياتي وأنا فتى أحلامها

ربما طبيعة الحياة ضغوطاتها .. ربما حرص شريكة حياتي أن تغير مني ..ربما مقاومتى لهذا التغيير حين أستحيل بين يديها كقطعة من الصلب تستعصي على التشكل

تنتهي المواجهة بانسحابي ، وشيئا فشيئا تهدأ ثورتها كبركان تتوقف حممه ، لكن مازال داخله يتميز .. نتقوقع نخرج من أصدافنا حين تغمرنا دفقة من حنان

تتكرر المواجهة كل حين وتنتهي مثل سابقاتها ..

لكن مع الوقت ضاقت الفترة بين المواجهات ، كما زادت الحمم ، ربما أغراها انسحابي أن تزيد من قوة حممها حين اعتقدت أن ماتقذفه ليس بكاف ..

ربما سكوني دفعها أن تتقدم نحو الأعمق

ربما يأسها من تغيري .. فأرادت أن تحطمني ثم تعيد تشكيلي من جديد ..

تعدى الأمر التنفيث ، وأصبح عملية إسقاط أو تحطيم ..

وبدا لي صمتى خطأ مثلما بدا لها ، وحدثت المواجهة التى لم يكن فى تأجيلها حكمة كما اعتقدت .

فقد أسفر تأجيلها عن شحذ المشاعر وتأجيجها واستعداد كل طرف مما زاد من سعارها وجنونها ..

الغضب ..

شيء من اللاعقل ..من الجنون ..من الشيطان

لا أذكر ما حدث .. بل لا أريد أن أذكره.. هى الأخرى لاتريد ذكره

تفاجأت بما حدث مثلما تفاجأت أنا ..

كيف حدث ذلك ؟

لا إجابة

انسحبت حين أدركت أن استمرارها سيفقدها كل شيء

وتوقفت حين أرعبني ما أحدثته من دمار

لن أعيش معك بعد اليوم ..

كانت كلماتها والتى حملت بين طياتها عكس ماظننت .

لم تكن قد فقدت في الأمل ..

حاولنا أن نتناسى.. لم يكن فى مقدورنا ..كل شيء يذكرنا

كنت أقضي معظم الوقت بعيدا عنها .. كان غيابي أشد وطأة

كانت تنظر إلي بارتياب وكأنها تراني لأول مرة ..ربما خالجها شيء من الاحترام

حين أدركت أننى حبست ذلك الطوفان عنها لعدة سنوات ، لكنها فى النهاية لم تنج منه

غادرت البيت .. لم أتمسك بها .. ربما بعدها عن مسرح الحدث يضمد جراحها

طالت المدة ولم يتم الشفاء ... شيء ما انكسر داخلنا.. شيء ما تغير

الانفصال ..

كلمة بشعة لاأدري من دسها فى قاموس حياتنا ..لا أدري من استجلبها

لكنها وجدت وفرضت نفسها بقوة

وأعاد السؤال نفسه ما الذى حدث ؟

لم تحك مثلما امتنعت أنا الآخر .. كفانا ماخسرناه

إذا كان قدرنا الفراق فلنحافظ على مابقي بعيدا عن الأرض المحروقة

بدأت المسرحية .. الجمهور هو حكماء العائلتين ، والممثلون أنا وهي

لكنها كانت مسرحية صامتة ، رغم ذلك أذهلت الجمهور ، فعندما التقت عينانا لاندري كم مر من الوقت لكن لايهم مادام الجمهور يمتعه ذلك ، فلم أكن على استعداد أن أكسرها حتى لو حاولت هى ذلك ..أدركت هي ذلك وثمنته.

أعادت ترتيب أوراقها ربما لمحت شيئا فى فتى أحلامها يستحق المغامرة بأن تشاركه بقية المشوار

كنت أدرك قيمتها فيما أعادت هى النظر في ..

أعادت اكتشافي من جديد ..

أعادت التنقيب فى داخلي ..

فلربما صادفها التبر وسط تلك الكومة من التراب

الخروج

كان جدي مولعا بي ... كان يقول إنه يرى في شبابه الذي سرقوه منه ... ويصمت.

وحين أسأله عن أبيه وجده ... يبتسم في مرارة ويقول :

تلك أيام مرت عليها سنون لم أعد أذكر منها إلا القليل والذي لن ينفعك وكنت أرى في عينيه غير ذلك حين أمازحه قائلا :-"عيني في عينك"

فيضحك ويقول :ألا تصدق جدك ؟

وذات مساء قال لي : ألا تحب جدك ؟

وعجبت فقد كان يعرف الإجابة واعتبرتها مقدمة لحوار لا يعرف كيف يبدأه معي.

قلت : مثلما تحبني

كان شارد الذهن يرقب الشمس وهي في الرمق الأخير ، وغنى عصفور حزين فأثار شجننا.

قلت أستحثه : تريد أن تحكي لي كيف خرجت

بكى جدي وأشاح بوجهه عني ... كان يكره أن أراه يبكي رغم أن عينيه كانتا تخبراني بأنه ما انقطع يوما عن البكاء.

قلت مشفقا : لكني لا أريد

قال كأنما يحدث نفسه

كان الشتاء قد دق الأبواب ، وعاد الجميع من مزارعهم مبكرين قبل أن يقطع عليهم الظلام الطريق ... والتف الصغار حول المواقد يأكلون ويثرثرون ويسمعون لحكايات الجدود مستأنسين بالدفء ... كانت قريتي آمنة آن ذاك.

وابتلع دموعه التي سالت من أنفه ... وقال : كانت سحنهم القذرة تنضح بالغدر ، وكنت فتيا يمكنني أن أصرع رجلين ...لكن أبى حثني أن أنفر أطفال القرية ونساءها وشيوخها، وأن ارحل بهم بعيدا ... كنا نسير في الوحل ونسقط فيه ، تطاردنا طلقات الرصاص فتحصد أرواح الأطفال والنساء والعجائز.

وخنقه البكاء فوضع رأسه بين كفيه وقال :كان يجب أن أموت هناك.

قلت برفق : جدي لم تقل بطولة عن الذين ماتوا

صرخ : لكنهم ماتوا وبقيت.

ومسح دموعه والتفت إلي وقال بفخر :
استشهد أبى هناك ... اخترقت رصاصات الغدر صدره ...

وأخي .. وابن عمي .. وصديقي ، ونظر إلي نظرة الطريد الذي وجد من يجيره وقال :

عِدني أنك ستعود يوما ما.

كان وجه جدي نيرا كالبدر ... وكنت أخشى أن أعده بشيء لا أستطيع الوفاء به ، لكنني وعدته فابتسم وقال بصوت حالم : ستجد البيت الذي ولد فيه أبوك ، وستجد حديقة غناء أمامه وعصافير تغني لا تبكي وأزهار قرنفل ورياحين ، وابتسم في خجل وقال : أتدري ماذا أريد الآن؟

قلت بود :ماذا تريد يا جدي ؟

قال :أريد أن أقذفهم بحجر ومط شفتيه بطريقة من يخشى سخرية الآخرين منه وقال :هذا ما أستطيعه الآن.

وضحكت فضحك حتى اهتزت أوصاله.

وقلت : لم لا

وقفزت أهرول فأحضرت حجرا أعطيته إياه فأطبق عليه بمشقة ... ووجهت مقعده المتحرك ناحية الفضاء ، ورفع جدي ذراعه بصعوبة بالغة وقذف الحجر ، وتنهد وابتسم وزادت رقعة الابتسامة في وجهه حتى صار من المستحيل أن يعاوده الحزن مرة أخرى...

صرخت : جدي......كان جدي قد مات.

السيرك

اغتم صاحب السيرك عندما أخبره الحارس بأن الأسد مريض... وصاح منذ متى ؟

من الأمس... امتنع عن الطعام ورقد

وتحرك الرجل بغضب وهو يردد وهل هذا وقته

اعتن به حتي آت بطبيب ...واختفى

وتعجب الحارس لأنه كان يعلم سر اهتمام صاحب السيرك..

إنه الموسم على الأبواب.. أما في تلك الأيام والتي لا عمل فيها فكان سيردد كلماته المعهودة... إنها وعكة .. اعتن به وسوف تزول ..

ولايدري الحارس من أين جاءه هذا الإحساس بأن المرض قد يطول بالأسد هذه المرة ..واستعاذ بالله وانقبض صدره عندما ذهب إلى أبعد من ذلك وتخيل أن الأسد ....قد يموت

وأجال بصره في القفص حيث يرقد الأسد ، وخده على الأرض وعيناه شاخصتان وصدره يعلو ويهبط في بطء ...

وتحرك الحارس فولج باب القفص واطمأن بأن الطعام لم يفسد بعد ، وراعه أن الماء لم ينقص في الحوض ، ومشى حتى صار في مواجهة الأسد فانحنى عليه وتحسس لبدته وظهره، وما لبث ان تربع على الأرض وهو يردد في توجع ....آه ياصديقي لو أعلم ما بك ....

...ومرت لحظة صمت عاد فيها الحارس إلي أول لقاء بينهما .. إنه منذ خمسة عشر عاما ربما نفس العام الذي ترك فيه الحارس القرية وجاء إلي المدينة ...كان الأسد فتيا قد جئ به للتو من أدغال أفريقيا ، وكان شرسا لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه حتي فكر صاحب السيرك في التخلص منه ......

وتأوه الحارس ونظر إلى الأسد بعينين طفرتا بالدموع .. وردد قد كنت مثلك ياصديقي .. لم أزل فتيا ..ثم ضحك حتى سالت الدموع على خديه وأصابعه تتخلل لبدة الأسد .. أعلم أنك ياصديقي تصدقني ..ولن تسخر مني ...ربما لم أكن في مثل قوتك.. ولكني كنت أملك ساعدين تمرسا على حمل فاس ، وكنت أملك قلبا فتيا ربما في مثل فتوتك ، وتنهد الحارس.. كانت الدنيا ملكا لي مثلما كانت الغابة ملكا لك ...وأفاق الحارس على صراخ قرد نال لطمة من أنثى يتودد إليها فابتسم بمرارة وما لبث أن استرعي الأسد انتباهه حين سمعه يئن فربت علي ظهره .. هيا ياصديقي .. فأنا لا أتخيل

حياة لي هنا بدونك ، ربما كنت سبب بقائي هنا كل هذه المدة ..أعلم أنك لم تنس الغابة ..أنا الآخر لم أنس القرية .

وأطرق الحارس لحظة ...وجلجل في السكون نعيب بومة ... ومرق خفاش في سماء الحظيرة فازداد توجس الحارس وقلقه على الأسد ثم مال براسه ليطل في عينيه اللتين كانتا على حالهما ونهض فأغلق باب القفص وتخطى باب الحظيرة الخارجي ..

كانت الليلة ربيعية والقمر هلالا يبدو لدقيقة ويغيب دقائق ، ولثمت ثغره نسمات رطبة زادت من شجونه وتلفت فلم ير دليلا على قرب وصول الطبيب .. فازداد قلقه وعاد إلى الحظيرة ودس راسه بين القضبان فاطمأن إلى أن الأسد مازال يتنفس ، ودار حول القفص حتى صار في مواجهته .. فنظر طويلا إلى عينيه وانتفض حين تخيل نفسه مكانه ، واجتاحه حنين جارف إلى القرية ..ونال الوجع من قلبه حين تخيل أن الأسد ربما يتوق هو الآخر إلى الغابة ..فدمعت عيناه وردد .. لا تحزن ياصديقي فأنا لست بأفضل منك .. كلانا في السيرك يؤدي دوره ...وغلبه البكاء وانهمرت الدموع من عينيه وسمع له أنين ..وسقط شعاع من السقف بان من خلاله أن القرد نال مايريد فشهق الحارس وأطلق زفرة حارة ..واحترق قلقا على الأسد ...

ودخله شئ من الطمانينة لسماعه صوت الباب الخارجي للحظيرة ، فأسرع حيث جاء الطبيب وصاحب السيرك وما هي إلا دقائق حتي كان الطبيب قد قرر أن الأسد قد شاخ وبأنه يحتضر ..

وتأفف صاحب السيرك وألقى نظرة غضب وعتاب على الأسد وانصرف بينما وقف الحارس وقد أحس بأن نصلا قد اخترق قلبه

...وفي صباح اليوم التالي ..كان هناك مكانان خاليان في الحظيرة قفص الأسد وحجرة الحارس

الرجل والبقرة

كان لعمي حامد بقرة ولود حلوب ، لم تكن كبقية البقر، هكذا قال لي أبي

ربما كان سبب ذلك رقة قلب عمي حامد وعطفه عليها .. كاد يعتبرها كابنه الوحيد ، كما أطلق عليها اسم {مبروكة} وكان عمي حامد لايذهب إلي فراشه قبل أن يمر على مبروكة ، فيتحسس رأسها وتلعق يده فيبتسم وهو يقول كيف أمسيت يامبروكة ؟

ولاتزال يده هكذا تمر على رأسها حتى كفلها ثم يطمئن على عليقتها وحوض الماء ويفرش لها قليلا من قش الأرز ويمضي

وهو يقول : تصبحين علي خير يامبروكة

وإذا حدث وقام في الليل لحاجة له كان ولابد أن يمر على مبروكة ليطمئن عليها .

وفي الصباح وبعد صلاة الفجر يفعل مافعله في المساء ، ثم يغسل ضرعها بالماء الدافئ والذي أحضرته زوجته

ويحلبها ، وبعد تناول فطوره يقوم فيفك حبلها ويسحبها إلى الحقل وهو يقول : هيا يامبروكة توكلنا على الله

هكذا كان عمي حامد مع مبروكة حتى صار مثارا لنكات الفلاحين ..

كانوا يقولون له : لم يبق إلا أن تشارككما {مبروكة} الغرفة ياحامد

فيقول : لو وافقت أم محمد لفعلتها

فيضحك ويضحك الجميع ..

ومرت الأيام وعمي حامد على عهده مع مبروكة ،إلى أن جاءت سنة من السنين العجاف فهلك الحرث وجفت الضروع وضاقت الدنيا على الجميع حتى باعوا أمتعتهم كي يعيشوا ، وصبر عمي حامد وكان صبورا لا يشكو إلا إلي الله ، وإذا ماحدثه أحد عن الضيق الذي هم فيه وأعينهم على مبروكة ، كان يقول : مرت سنون أعجف من تلك ، ويردف : عندما تشتد يأتي الفرج بإذن الله ، وإذا ما أشاروا إلى مبروكة صراحة ...

ابتسم في مرارة وقال :

مبروكة هذه واحدة من العائلة ..وهل يبيع أحد أولاده ؟

وبين نيوب الدهر تتهاوى البطولات ويصير الأنين عواء مهما حاولت كتمه

وباع عمي حامد مبروكة ..

يومها ترك البيت حتى لايراها وهي تخرج إلى غير رجعة ولم يعد إلى منتصف الليل ،وعندما عاد كانت عيناه حمراوين من البكاء ووجهه متيبسا حتى أثار شفقة زوجته التي قالت : وحد الله يا حامد ، ما الذي جرى وكأنه قد مات لنا عزيز ؟ وكانت تعلم مدى وجده بمبروكة .

ولاذ بالصمت فقامت وجهزت له طعاما وأقسمت عليه أن يأكل ، وكان عم حامد يأكل وكلما وقع بصره على الحظيرة تملكته الحسرة

ومر أسبوع وكأنه الدهر لم تطب لعمي حامد فيه لقمة ولم يهدأ له بال ، ولم يعد يدخل الحظيرة .

وذات صباح أفاق عمي حامد على طرقات شديدة بالباب ففزع ويالهول المفاجأة تخيلوا من بالباب ؟

.... نعم إنها مبروكة

واحتضن عمى حامد رأسها بين ذراعيه وصرخ فرحاً : مبروكة جاءت يا أم محمد

وهرعت أم محمد فوجدته يقبل رأس مبروكة ويربت عليها بشكل أثار شفقتها عليه فحدجته بنظرة أدرك معناها

فقال يستدر رضاها : دقائق تبقاها معنا وتذهب لصاحبها

وفتح باب الحظيرة فولجت فيه مبروكة وراحت تشمم المكان وكأنها تستعيد ذكريات لها فيه وأحضر عمى حامد بقية نخالة كانت بالبيت وغسل الحوض وملأه بالماء، وفرش تحتها كومة من القش ، وأمرت أم محمد ابنها أن يذهب لصاحب البقرة كى يطمئنه بأن البقرة لديهم ، وليأتي ليأخذها فقال عمى حامد لابنه : قل له يأتي فى المساء ونظر لأم محمد التى لم تخل نظرتها له من اللوم وقال نحن لن نهملها ولن نطلب منه أجرا لمكوثها عندنا

وفى المساء جاء صاحب البقرة وكان بدينا تاهت بدانته فى طوله الفارع وعلى رأسه عمامة زادت من طوله وهيبته ، وفى يده عصاً معقوفة بال طرفها ربما من كثرة استعمالها ، ودخل بيت عمى حامد .. يومها لم يترك عمي حامد البيت، وكأنه بقي ليودع مبروكة

قال الرجل لعمى حامد حين رأى ما تحظى به مبروكة من اهتمام

: من أجل ذلك تحبكم مبروكة فعادت إليكم

قال عمى حامد بأسى : مبروكة ملك من يملك ثمنها

قال الرجل بجفاء : رد علي فلوسى وليعوض الله علي فى الأسبوع الذى مكثته عندي

وألجم العجز عمى حامد فقالت زوجته بحزم فلوسنا وأخذناها وبقرتك عندك ، وتحرك الرجل وفى غلظة أمسك مبروكة من مخطمها وراح يسحبها ، ولكن مبروكة حرنت ونظر الرجل إلى عمى حامد فوجده يتحاشى النظر إلى مبروكة ، وكأنه يخشى أن تفضح عيناه عجزه

فقال : إذا أنت الذي يحرضها

وأطلق الرجل صوتاً من فمه يحثها على الحركة فلم يجد معها فرفع عصاه وهوى بها فوق ظهرها الذى تقوس من شدة الضربة

فصرخ عمى حامد : لا تضربها

فضحك الرجل باستهزاء وقال : لم يبق إلا أن تقول لي توسل إليها

وتحرك عمي حامد فجذب منه الحبل بشدة وتحسس رأس مبروكة في رقة وقال بصوت يغلبه البكاء :هيا يامبروكة .

وتحركت مبروكة في يسر عجب له الرجل

كان عمي حامد ومبروكة يسيران في خطوات جنائزية ..

كان عمي حامد ينظر إلي السماء ، وكانت مبروكة تنظر إلى الأرض وقد أرخت أذنيها وثبت ذيلها.....

كان عمي حامد يبكي وكانت مبروكة ولا شك تشاركه البكاء وسط دهشة الرجل الذي راح يقول سبحان الله

ومع مرور الزمن لم تمح من ذاكرة قريتنا حكاية مبروكة...

كنا نرويها حين يغلبنا الحنين إلي الوفاء.

يحكي أن الرجل الذي اشترى البقرة لم ير بعد ذلك في قريتنا و هو يحمل عصاه أبدا

الكذبة الأخيرة

عندما أمرني أبي أن أخرج لأحد الجيران وأخبره بأنه ليس بالبيت احترت ولاحظ هو ذلك فقال بحزم

- هيا تحرك
- وقلت في لهجة بريئة
- لكنك موجود
- ولطمني أبي وقال بغيظ
- قلت لك اذهب وأخبره بأني لست موجودا

وخرجت والدموع تملأ عيني وأخبرته ورغم صغر سني آنذاك إلا أنني شعرت بأنه لايصدقني لكن أملي في أن تشفع لي تلك الدموع كان كبيرا

وعدت وأنا أتحسس خدي وأثر اللطمة والتي كان بالإمكان تفاديها ، وبعد قليل وكعادة كل الصغار كنت قد نسيت وانخرطت ألعب مع أصحابي ، وناداني أبي فذكرني صوته بما حدث وأجبت في تكاسل أدرك من خلاله أني مازلت زعلان فربت على كتفي وقال بود

- لاتحزن

وغمرتني السعادة حين استعدت ثقتي فيه ، وزالت تلك الغبرة التي رانت على صورته في مخيلتي واعتبرت اعتذاره توبة تستوجب الغفران لكنه فجعني حين قال

- يجب أن تكون مطيعا

يومها لم تطب لي قطعة الحلوى التي أعطانيها وأحسست فيها مرارة لم أعهدها في سابقتها وحدجته بنظرة أحرجته وقلت بعتاب

- أكذب يا أبي ؟

وأربكه سؤالي للحظات استعاد ثباته بعدها وراودته ابتسامة خجلى وقال

- بني هذه ليست كذبة

واسترسل في تبريرات اعتقد بأنه أرضاني بها ولأول مرة لا أصدقه

مرت أيام أتقنت فيها مهمتي بعدما كررتها مرات ، وصرت أؤديها بثقة توحي بالصدق ، واكتشفت بأن الكذب كأي حرفة تتقنه الممارسة ، وصرت لا أكذب لصالح أبي وأمي فقط بل تعديت ذلك لحساب نفسي ولأتفه مطب .. شجعني

على ذلك أن نجاني الكذب من مآزق كثيرة إلا أنني كنت أدرك أنه كالسير على الحبل قد تهوي في أي لحظة مهما أتقنته .

واكتشف أبي ذلك فجأة عندما سألني ذات يوم

- هل أديت واجباتك ؟

وبلا تردد

- قلت نعم
- أحضرها

وأحضرت له واجبات يوم سابق ولسوء الحظ لا أدري أم لحسنه اكتشف ذلك وقال بلهجة حاسمة

- أنت تكذب

وتلقيت الأمر ببرود فقد كنت أعلم ذلك كما تلقاه هو بشكل لم يختلف عني كثيرا ، وملأ أذني بنصائح عدة عن الصدق كفضيلة يجب أن أتحلي بها وعن الكذب كرذيلة يجب الإقلاع عنها ثم تنهد وقال

(لو كان الكذب ينجي فالصدق أنجى)

ولا ادري لماذا تذكرت في تلك اللحظة اللطمة التي نلتها منه ، ورددت نصيحته في سري (لو كان الكذب ينجي

فالصدق أنجى) ولم أجد فيها في تلك السن الحافز الذي يجعلني أصدق واعتقدت أن أبي لم يكن يدرك معناها جيدا ، ورغم حبي لأبي وإيماني بأنه لم يكن يقصد أن يعلمني الكذب إلا أنني اعتبرته المسئول الأول عن ذلك ، لذا ذهبت نصيحته أدراج الرياح .

شخص واحد فقط والذي كنت أقف أمامه عاجزا عن الكذب.. إنه محمد صديق الدراسة ورفيق عمري .. تلك الأرض النظيفة التي ما إن وطئتها أدركت أنك كنت تخوض في الوحل، ولا أدري سببا لذلك غير أنه كان صادقا معي ، لذا كنت أراه هناك في السماء وأنا في الأرض لا وجه للشبه بيننا ، إلا أنه كان يبقي لي دائما المنارة التي تعطي التائهين الأمل في النجاة .

وذات يوم كنت معه في الفصل وحدث أن ضايقني زميل فقذفته بأنبوبة فارغة، فتفاداها لترتطم بالأرض وتحدث دويا التفت على إثره المدرس وسال في غضب

من فعل ذلك ؟

وكدت أن أنفي التهمة عن نفسي قبل أن تلتقي عيناي بعيني محمد والذي نظر إلي.. كانت عيناه تهمسان إلي في توسل وود

- لا تكذب ..لا تكذب

ووجدت نفسي أقول بتلقائية

- أنا الذي فعل ذلك

ولم يتملك المدرس نفسه فصفعني ، ورغم قسوته إلا أنني لم أبك ، وتذكرت في تلك اللحظة تلك اللطمة التي نلتها من أبي ، وأدركت حقيقة لن أنساها طوال حياتي (أن الكذب شاق على الأقوياء رغم أنه أيسر رذيلة يمكن أن تقترفها)

وأفقت على نظرة تقدير من محمد ويده تهزني فابتسمت ...

يومها عاهدت نفسي ألا أكذب .

مرت سنوات وسنوات على تلك الأيام .. واليوم فقط أذكرها عندما كدت أن أقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبي حين قلت لابني بخصوص ضيف ثقيل توقعت قدومه

لو حضر فلان قل له بأنني غير موجود

وسألني ابني نفس السؤال وكأن الأيام تعيد نفسها

أكذب يا أبي ؟

فضحكت وضممته إلي وقلت

شاطر يا أحمد ..كنت أختبرك ولقد نجحت في الاختبار لأنك قوي والكذب شيمة الضعفاء .

ووجدت أن تلك الكلمات أقرب النصائح إلى فهمه آنذاك فابتسم بفخر ..

وقررت ألا أضعف وأن أواجه ذلك الضيف وعاهدت الله أن تكون تلك هي الكذبة الأخيرة .

أبو غنيم .. وتهويم عاشق

لعلك لم تجرب أن يقيد أحد يديك وقدميك ويكمم فمك ثم يبصق في وجهك ويتركك ويمشي ... هذا هو بالفعل حقيقة شعوره في تلك اللحظة ..

لكن ثمة سبب قوي يجعله يقاوم .. إنه الحب .. والمقاومة تعني له الحياة بكل معانيها .

أشعل سيجارة ..وسيجارة ..وسيجارة ونفث أنفاس متلاحقة ، وفرد جريدة كانت بيده فطالعه عنوان باللون الأحمر (مجلس الوزراء الإسرائيلي يصادق على إنشاء مستعمرة جديدة بالقدس)

طوى الصحيفة وحسا حسوات من كوب الشاي الذي أمامه وخرج مسرعا من المقهى .

كان من اليسير عليه أن ينظر من شباكه فيراها في الشرفة لكن الشرفة موصدة منذ يومين وليس ثمة طريقة للوصول إليها ، رفع صوت المذياع قليلا

واصطنع شيئا من الجلبة وعيناه ترصدان باب الشرفة لكن دون جدوى ..

ربما سافرا ؟ تساءل وسرعان ما كذب نفسه فأخوها الصغير يلعب في الشارع ، ربما سافرت بمفردها ! لكن إحساسه بأنها موجودة يقمع كل فكرة لديه بالسفر ..

أفاق على صوت باب الشرفة ..انتفض فربما يكون أبوها أو أمها ..تحرك في مكان لا يراه منه أحد وانتظر .

إنها هي بوجهها الملائكي وعينيها الساحرتين ..انقبض عندما رأى الحزن يكسو وجهها الجميل ..تحرك من مكانه حتى صار في مستوى رؤيتها .. التقت عيناهما للحظات تجلى فيها ضعفها وبدا فيها عجزه .. قطعتها بأن قذفت إليه ورقة فردها (تعلم أنه تقدم إلي شخص ..رفضته دون جدوى ..حاول أن تفعل أي شيء)

رفع عينيه من الورقة ونظر إليها فوجدها تمسح دمعتين فرتا من عينيها ، واستدارت لتعود مسرعة ..حاول أن يناديها ا..ا ..ا لم يستطع بعدما أغلق باب الشرفة في وجهه

العجز

اخطبوط يكبله ..يدفس أذرعه اللحمية اللزجة في كل مسامه ..إنه كابوس .. ليس ثمة وسيلة للخروج منه (حاول أن تفعل

أي شيء) ترددت كلماتها ولاح وجهها الصبوح تغشاه غلالة من الحزن ودموعها تنحدر ..

صاح بأعلى صوته : لابد وأن أفعل أي شيء ..ومثلما يلوح نجم في سماء ليلة شتاء ملبدة ،لاحت له فكرة ..لما لايكلم عمها

فالرجل صاحب رأي ليس بالهين ..إذا في الصباح .. من السخف تضييع الوقت ، والأسخف أن تضيع هي من بين يديه ..

ومثلما ترتد كرة مطاطية اصطدمت بجدار خرساني عاد تتبعه همومه .. لما لا يحاول ثانية ..

كانت فكرة ميتة لكنه جاهد ألا يترك بابا يندم علي عدم طرقه .. لكنه عاد خالي الوفاض ..

استلقي على سريره .. أشعل سيجارة وراح يتابع دخانها وهو يتصاعد في خطوط وحلقات .. أغمض عينيه لعل النوم ينتشله من هذا الخضم الرهيب ...

أفاق على صوت طرقات على بابه وصوت (العاشرة صباحا) لم يدر متى نام لكنه شعر براحة كبيرة ، مالبثت أن تبددت وداهمته همومه ففتح المذياع (الجرافات

الإسرائيلية تبدأ العمل في مستوطنة أبو غنيم) انقبض صدره

أدار مؤشر المذياع ..ومثلما يدمغه حجر مرقت زغرودة عبر الشارع ، فبدا وكأنه يحلم.. سرعان ماتوالت الزغاريد ..وطالعته تلك النظرة المستنجدة ، فبديا كغريقين يتشبثان ببعض ..وترددت كلماتها ..(حاول أن تفعل أي شيء .. حاول أن تفعل أي شيء)

وضع يديه على أذنيه ودفن رأسه في الوسادة ..

وبكى بكاء مريرا ..مريرا

مجرد ذكريات

عزيزتي ...

بالطبع لايمكننى البوح باسمك ..

وكيف آت ذلك ؟ .. وانأ الذي لم يبح به حتى لأقرب الأخلاء إلي ، عندما كان قلبي يُضرم بحبك وكان طيفك يملأ علي حياتي .. فكيف أذكره الآن وقد انطفأت جذوة ذلك الحب ، واستكانت نفسي ولم يبق من تلك الأيام غير ذكريات ..

ذكريات عندما أسترجعها أعجب كيف حدث ذلك .. ذكريات يصورها لي خيالي الضحل على أنها بطولة ..إلا أنني وعندما أعود لنفسي أجدني لم أفعل شيئا غير عادي سوى أنني تصرفت بما تمليه علي المسؤولية ..مسؤولية الواجب والأصول التي تربيت عليها ..

فقد كنت آن ذاك يافعا ،مملوءا بطموح أن أكون شيئا بعدما نذرني أبي لذلك

فلم تمنعه رقة حاله من أن يوفر لي جنيهات أكمل بها تعليمي ولم يكن يخفى عليك ..

فنظرة فاحصة إلي كانت كفيلة بأن تنبئك بذلك ..الحذاء الرخيص والبنطلون البائس والقميص الوحيد ..الهيئة التي تدل على رقة الحال لا العزيمة .

لذلك عجبت حين رأيتك تتوددين إلي ..عجبت منك كيف تتركين كل أولئك الذين يتقربون إليك ممن هم أيسر مني حالا وتقصدينني دونهم ..

وظننتك بادئ الأمر مترفة من المدينة تريد أن تعبث بمشاعر البسطاء أمثالي من الريفيين ..عند ذلك أدركت بأنك أخطأت الطريق ..فلم أكن أنا ذلك القروي الساذج الذي توقعه فتاة في حبائلها ..

لذا كانت كل محاولة منك تجد لدي حصنا منيعا ..

ولم تيأسي ولم أصمد ، وكان لقاؤنا الأول ، أعلم أنك كنت تنتظرين أن أبثك أشواقي ومشاعري وكنت أتمنى ذلك ، لكني وجدت نفسي أمام مسؤولية اعتدت دائما على تحمل أعبائها .

لقد كنت ثمرة يانعة اشتهتها نفسي لكن لا أملك ثمنها ، والحب لدي يعني الزواج ..الانتظار إثم لا أريد اقترافه ..

فكان لزاما علي بأن أغض بصري وأقبض يدي وأدير ظهري ..كان الألم يقتلني وأنا أرى عجزي يكبلني ..لكن الواجب كان يحتم علي ذلك

ومرت أيام وليال مريرة تفاديت فيها لقاءك أو النظر إليك ..ورغم ندرة دموعي إلا أنني بكيت كثيرا يوم ترامت إلي أذني كلمات صديقتك وأنت تجلسين خلفي..

دعك منه إنه جلف معدوم المشاعر وعز علي أن تستحسني ذلك ..

وتوالت الأيام رتيبة ثقيلة تنازعني فيك نفسي ، ورغما عني كنت أجدني أتتبع أخبارك كطفل علقت طائرته الورقية بقمة جبل ..

وانقطع الخيط فجأة وشعرت بالحسرة لكن دونما حقد عليك ..وبكيت كثيرا وانأ أتمني لك من قلبي السعادة .

ورغم المرارة التي تجرعتها والظلال السوداء التي خيمت على حياتي ، إلا أنني لم أسقط ولم أستسلم وتابعت طريقي بنفس الهمة

أيام كثيرة مرت على تلك الأحداث .. تزوجت فيها من فتاة فاضلة وحققت لأبي بعض ماكان يصبو إليه ، وها أنا اليوم أكثر سعادة عندما بلغني أنك سعيدة مع زوجك .

لقد أجللت ما قمت به رغم قسوته آنذاك ..إلا أن الحياة كانت ستبدو بدونه مسخا لاملمح له .

وهكذا نحن تتداولنا الأيام ..فتجرعنا من كأسها السم الزعاف ، والشهد أحيانا ، وتبقي لنا الذكريات لتخبرنا دائما بأننا قادرون على أن نلون الحياة لتبدو أرق وأجمل .. تبقي دائما تذكرنا بأننا قادرون علي أن نجعل للحياة طعما آخر ..

قادرون على أن نجعلها دائما حلوة

انتصار

كان أبي فلاحا بسيطا لم ينل من التعليم إلا الحظ الذي يتيح له أن يكتب اسمه أو يقرأه ، إلا أنه كان يعرف الواجب والأصول (علي حد قول أهل قريتنا)

أما مثله الأعلي فكان إبراهيم ابن عمه عبد العال أو الدكتور إبراهيم كما كان يحلو له أن يقول لذا كان يريد مني ومن إخوتي أن نكون نسخة أخرى من الدكتور إبراهيم .

بذل أبي ما استطاع كي يعلمنا.. كنت آنذاك في الصف الرابع الابتدائي، وكنت كثير اللعب كما كنت كثير الشجار مع أقراني ، وعلى عادة أهل قريتي الطيبين (الأدب فضلوه على العلم) لذا كان أبي لايألو جهدا في أن يضربني لأقل شكوى ظالما كنت أو مظلوما ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعني من الشجار .

ومرت الأيام حلوها ومرها وانتقلت إلى المدرسة الإعدادية وتغيرت معاملة أبي لي.. الجميع شعر بذلك كما أنه أصبح يناديني بالأستاذ ..

أصدقكم القول لقد كنت أعشق سماعها وأنتشي وأتقمص دور الكبير الذي يحق له أن يأمر وينهى ويبطش أحيانا ، إلا انه كان يداهمني بين الحين والأخر بيده التي شكلتها يد الفأس ليوقظني من ذلك الحلم الجميل على الواقع المر الذي اعتقدت أنه انتهى .

ـ صرخت ذات مرة : يجب أن تتبين الأمر يا أبي لماذا تصر على أن تجعلني ذليلا ؟

ـ قلت لك لا أريد مشاكل ..طول حياتنا بالقرية لم يسمع أحد لنا صوتا ..أنت طالع شقي لمن ؟

ومرت الأيام وتعودت على ذلك ، وبدأت أعي كيف يفكر أبي وكيف يزن الأمور ، فتحاشيت كل مايوقعني تحت يده ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعني من آخذ حقي ممن يعتدي علي .

وذات مساء غير عادي تجمع أبي وأحمد أفندي والدكتور إبراهيم وعمي كامل في صحن دارنا والتفوا حول المذياع يرهفون السمع .

قال أبي بصوت متهدج : مصيبة وحلت بنا

- رحل الإنجليز وجاء اليهود
- كارثة
- نكسة

ـ منذ زمن وأنا أقول نحن لسنا ندا لهؤلاء ..كان يجب أن نحسبها صح

ومست الكلمات الجميع.. بدا ذلك على وجوههم .

قال أبي بجفوة : ماذا تقصد يا إبراهيم ؟

وكان لا يناديه باسمه إلا إذا غضب منه

ـ نحن ند لهم وأكثر لا تنس أن الحق معنا ..والله معنا ولن يذلنا أحد أبدا

واحتدم النقاش إلي وقت متأخر من تلك الليلة .

وفي الصباح كنا ككل صباح لم يتغير شيء ولكن الذي تغير هو نظرتي لأبي

فلم تكن الطيبة التي كنت ألمحها في عينيه انكسارا ، ولم يكن التسامح الذي يبديه مع الناس تهاونا في حقه ..

وتملكني الضيق من نفسي ليس للهزيمة و النكسة ، فقد كنت في سن لا يستوعب تلك الأمور ولكن لأني ظلمت ذلك الرجل

وخرجت من المنزل في سرعة البرق لانقض على غريم لي عندما جاءني صوته يتحداني .

ـ اخرج لو أنت رجل

ولا ادري من أين جاءتني كل هذه القوة ورحت أكيل له اللكمات وتركته بعدما علا عويله ودخلت البيت غير مبال بما قد يحدث لي

وفي المساء جاء أبي إلا أنني كنت أكثر إصرارا على مواجهته ، فلم أهرب إلى حجرة جدتي ولم أذهب إلى سريري وأتظاهر بالنوم ، وإنما كنت كأي يوم في حياتي لاتعكره تلك الشجارات

ودخل أبي وقد علم بما قد حدث ، فنظر إلي نظرة طويلة لم أهتز لها ثم تركني ومضى

وفي الليل أخذني إلى حجرته بعدما تأبطني وقال برفق

ـ يجب أن تكف عن تلك الأمور الصبيانية

لقد أصبحت رجلا

وابتسم فبادلته ابتسامة

ـ أريدك أن تلتفت لدروسك

وانتظرت الكلمات التي مللت سماعها بضيق (أريدك أن تكون طبيبا مثل إبراهيم بن عمي عبد العال)

لكن أبي خيب ظني هذه المرة وقال

ـ يجب أن تكون متفوقا دائما

ولا أدري .. لم شعرت في هذه اللحظة بالإجلال لذلك الرجل ؟ ووددت لو قبلت رأسه ويده وقدمه لكن وجدت أنه سيكون سعيدا لو حققت حلمه في أن أكون طبيبا

امتقع لونه وأحس بأن أحدًا صب عليه برميلاً من الماء البارد .. فلم يكن يظن بأن أحدًا ما يقوى على أن يقول للفلوس لا وهو الذي ظل رأسه محنيا لها طول حياته ، لذا لم يبطئ عندما استنجدت به الست ثريا وخرج مسرعًا بعدما دس في مظروف أضعاف المبلغ الذي طلبته منه

لعلاج ابنها ووجد فيها الفرصة التي يتحينها .. أصلح من هندامه، ودندن بأغنية عن العشق والغرام وقرب نوال المراد ، وتخطى الممر الذي يفصل بين الشقتين في حذر وطرق الباب وانتظر تلهبه نشوة قرب سقوط الثمرة بعدما أينعت .. كان رد ست ثريا رادعا عندما أحست بالرغبة تتلوى في نظراته وتتدثر في ثنايا كلماته المعسولة ..

- أعِد فلوسك لجيبك يامعلم ..

ورد بدهشة من بوغت بالأمر : وهل يرفض أحد النعمة ؟

- لماذا تساومنا على الشيء الوحيد الجميل في حياتنا يامعلم ؟

وشعر المعلم بأن أحدًا نزع سرواله والتفت ومضى دهشا يضرب كفا بكف ..

يا الله مازالت الدنيا بخير ومازالت تعمر بالشرفاء، وردد في تعجب {ست ثريا } ومر في طريقه بعطوة البواب والذي نهض لرؤيته فحياه وسأله المعلم هل تدرى لماذا لم تقع السماء على الأرض حتى الآن ياعطوة ؟

وأجاب عطوة ببلاهة : لماذا يامعلم ؟

لأن الدنيا مازال فيها أشراف أما الأنذال أمثالي وأمثالك عندما تصبح لهم الكلمة فستنهد الدنيا على رؤوسهم ..

ومضى المعلم فى طريقه للوكالة تاركا عطوة يقسم أن المعلم قد أصيب بعقله

ودخل المعلم عنتر الوكالة فنهض الجميع لتحيته وجرى اليه حنفى يسأله ..

هل أحضر القهوة يامعلم ؟

دعها الآن وانشغل المعلم عنتر مع المعلم عتريس فى تسوية حساب كان قد أنكره الأخير ليعلو صوت المعلم عنتر وهو يشيح بيده للمعلم عتريس ، فبدا كثور هائج وقال محتجا في ذلك اليوم : لم تخرج بضاعة لأحد غيرك ، لكنه لم يفلح في إقناع المعلم عتريس والذى أصر على إنكاره وغادر تلاحقه كلمات المعلم عنتر ضمائر الناس ماتت وتوعده بأنه لن

يفلت من يده وتعجب من إنكاره متسائلا ألم تكفه الفلوس التى لديه حتى يستحل مالي ؟

ألا يخاف الله ؟ ...

ومسَّت الكلمات الأخيرة موقعا من نفسه،فبدا كجذوة طالتها المياه ، وتذكر موقفه من الست ثريا في الصباح فتسرب الخجل إلى نفسه واحتار في أن يصف مافعله معها حين استغل حاجتها ليصطاد فى الماء العكر ، وحاول أن يقارن بين مافعله المعلم عتريس وبين فعلته ، فهانت فى نظره فعلة المعلم عتريس

واستوطى نفسه بقدر ما علا قدر الست ثريا فى نظره وردد امرأة محترمة ..

وتيقن أن هناك شرفاء كثيرين.. وردد ... لكنك ياعنتر تخوض فى الماء الضحل ، لذا لن تجد إلا العفن وبدت له الست ثريا فجأة كضوء أشعره بأنه كان يعيش فى الظلام ولايدري ..

وأفاق المعلم عنتر من شروده على صوت حنفى يقف أمامه..

هل ناديتني يامعلم ؟

فنظر إليه في ذهول من تحت العِمَّة ..امش من هنا ..كلنا كلاب ..كلنا كلاب

وهرول حنفي بينما سأله من بالوكالة لماذا أغضبت المعلم؟

لم أفعل شيئا .. يبدو أنه ليس على مايرام اليوم

وفى زحمة العمل نسي المعلم عنتر الست ثريا ..لم يكن يذكرها إلا عندما يمر بباب شقتها والذي كان يذكره دائما بسموها ودنوه

وذات صباح استيقظ المعلم عنتر على جلبة بشقة الست ثريا فأرسل أحد أولاده يستطلع الأمر والذي عاد بعد دقائق ليخبره بأن ابنها قد مات ، وأحس المعلم عنتر بطعنة في صدره وسأله بلهفة أي أولادها ؟ متمنيا ألا يكون ذلك الطفل الذي طلبت من أجله الفلوس ..

قال ابنها الصغير، وأكملت زوجته : كان مريضا وأجروا له جراحة منذ أسبوع ..

وأراد المعلم عنتر أن يوبخ زوجته لأنها لم تخبره لكنه خشي من أن تخبر الست ثريا على سبيل المجاملة فيفضح أمره ، وارتدى جلبابه وخرج يلاحقه نداء زوجته لكنه لم يلتفت ..

لم تهدأ نفس المعلم عنتر طول اليوم ، إلى هذه الدرجة تتآمر عليه الأحداث لتشركه في جرم ليس له فيه يد وتعجب من عفة تلك المرأة ، وازداد بغضه للفقر الذي خطف منها ابنها ودنائته التي شاركت معه ، وكيف عجزت يد العون من أن تمتد لها في الوقت المناسب ، ولأول مرة يشعر بعظمة نعمة الله عليه وارتاحت نفسه قليلا عندما سأله موظف لديه عن سر اغتمامه فذكر له بأن ابن جارتهم مات

قال الموظف : قدر الله

قال المعلم بأسى يكاد يفضح ما بنفسه : لكنه كان صغيرا

الموت لايعرف الأعمار يامعلم

وفي المساء كان المعلم عنتر قد حشى مظروفا بالفلوس وأعطاه لزوجته لتعطيه للست ثريا وأقسم عليها إن عادت به فهي طالق ، وخرجت زوجته مذهولة وحين عادت وجدته يحترق انتظارا وبادرها أخذته ؟

بعدما بكيت لها !

ثم أخبرته بأن الست ثريا كانت سألتها عن عمل لابنها الأكبر لكنها نسيت أن تخبره ، ووجدها المعلم عنتر فرصة ليكفر عن خطيئته ، فأمر زوجته أن تذهب إليها لتخبرها

بأن يأتي في الصباح ، وألقت عليه زوجته نظرة لم تخل من الريبة وقالت : في الصباح سأخبرها

فلكزها وقال : قلت الآن

وفي الصباح كان الابن الأكبر للست ثريا يعمل في الوكالة وكلما رآه المعلم عنتر شعر بنشوة من يروي نبتة ويراها تينع ..

وذات صباح ترامى إلى المعلم عنتر صوت حنفي وهو يسب ابن الست ثريا بأمه فصاح المعلم عنتر : حنفي إنت يازفت

ودخل حنفي يهرول ، فلم يستطع المعلم أن يمنع نفسه من صفعه رغم ندمه على ذلك وفي المساء استدعاه وقال له في لين لاتغضب منى ياحنفي ، أنا مثل والدك ، وهز حنفي رأسه في دلال وقال : تضربني من أجل هذا يامعلم؟

فقرصه المعلم من أذنه

وقال : هل تعرف الشمس ياحنفي ؟

قال حنفي : من منا لا يعرفها ؟

قال المعلم : هل تستطيع أن تنظر إليها ؟

قال حنفي : أفقد بصري

قال المعلم : وعندما تنظر إليها ؟

قال حنفي : أطأطئ رأسي وأنظر إلى الأرض

قال المعلم باعتزاز : الست ثريا التي سببتها مثل الشمس عندما تنظر إليها يجب أن تطأطئ رأسك وتغمض عينيك وتنظر إلى الأرض احتراما وإجلالا لها

وتسائل حنفي في خبث : لم كل هذا الاحترام يامعلم ؟

وتمنى المعلم عنتر لو حكى له الحكاية لكنه قال : هناك أشياء كثيرة في هذه الدنيا ياحنفي غير الفلوس، عندما ننظر إليها يجب أن نغمض أعيننا وننظر إلي الأرض احتراما وتقديرا .... منها الست ثريا

الفـهـرس

عشق	٥
الخال	٨
زهيمر	١٠
الرجل	١٣
حجرة المداولة	١٤
رسالة	١٥
نذالة	١٦
أسير	١٩
براءة	٢٠
النهر	٢١
امرآة	٢٤
امرأة و رجل	٢٥
هروب	٢٦
صديقان	٢٧
صورة	٢٨
امرأة	٢٩
غيرة	٣٠

القطار	٣١
أم	٣٢
أجمل كذبة	٣٣
محنة	٣٤
انكسار	٣٥
الخروج	٤٠
السيرك	٤٣
الرجل والبقرة	٤٧
الكذبة الأخيرة	٥٣
أبو غنيم .. وتهويم عاشق	٥٩
مجرد ذكريات	٦٣
انتصار	٦٧
الفلوس وأشياء أخرى	٧٢

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع